إثبات استواء الله على عرشه

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] في سبعة مواضع: في سورة الأعراف قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، وقال في سورة يونس عليه السلام: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس:٣]، وقال في سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد:٢]، وقال في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، وقال في سورة الفرقان: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٥٩]، وقال في سورة ألم السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: ٤]، وفي سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: ٤]).

(الشرح)

هذه الطائفة من الآيات الكريمات التي ساقها المؤلف –رحمه الله–يجمعها موضوع واحد، وهو إثبات استواء لله عز وجل على عرشه المجيد، بعد خلق السماوات والأرض، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

والاستواء: لغة: العلو والاستقرار؛ كما قال الله، عز وجل، في سورة الزُخرف، لما ذكر الفلك والأنعام: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: ١٣]؛ أي لتعلوا وتستقروا على ظهور الفلك والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا علوتم واستقررتم عليها؛ هذا هو أصل معنى الاستواء في لغة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين؛ فالذي قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: ١٣]، هو الذي قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]. فمعنى الاستواء في الموضعين واحد، من حيث الوضع اللغوي؛ لكنه إذا أُضيف إلى

المخلوق صار استواءً يليق به، وإذا أُضيف إلى الخالق صار استواءً يليق به؛ كما في سائر الصفات، وقد أثبت الله تعالى هذا الاستواء في سبعة مواضع من القرآن.

وقد ورد لفظ "استوى" في القرآن جاء على ثلاثة أنحاء:

الأول: مُطلقًا؛ غير مُقيد بحرف، كقول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص:١٤]، فتدل على الانتهاء والكمال، كقولنا: استوى الزرع، يعني بلغ غايته في الصلاح، استوى الطعام، أي بلغ غايته في النُضج.

الثاني: مُتعدية بـــــــــ(إلى)، كقول الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١]، فمعناها حينئذٍ: قصد بإرادة تامة؛ فهي تدل على معنى القصد والتوجه للشيء.

الثالث: متعدية بـــــــ(على)، وهذا محل الشاهد، كما في هذه المواضع السبعة، ستة منها على نسق: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وفي موضع واحد بلفظ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؛ فيكون معناها حينئذٍ: علا واستقر علواً واستقراراً يليق بجلاله وعظمته؛ هذا الذي تعرفه العرب من لُغتها، لا تعرف سواه.

قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}: هذه الأيام ليست كأيامنا، بل كما قال الله، سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧]، وهو خلق عظيم، كما قال: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [غافر: ٥٧]، وقد فصّله بقوله: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ٩ – ١٢].

قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: (ثُمّ): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، فيستفاد منه أنه، سبحانه وبحمده، حين خلق السماوات والأرض لم يكن مُستويًا على العرش، فلما فرغ من خلقهما استوى على العرش؛ هذا ما تدل عليه لُغة العرب، ويفهمه كُل عربي قُح.

و(العرش): لغةً: سرير الملك؛ قال الله تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل:٢٣]، واصطلاحًا: هو أعظم المخلوقات، وأعلاها، وأجلُّها، وأكبرها، وهو سقف العالم؛ فالكون كُله تحته، وما فوقه إلا الرحمن، سبحانه وبحمده، وله قوائم؛ كما نطقت بذلك النصوص؛ فقد قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأُولَى)[١]، وله حَمَلَة، قال الله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧].

فيجب الإيمان بأن لله تعالى عرشًا عظيمًا، كبيرًا، عليًا، استوى عليه، سبحانه وبحمده، استواءً يليق به سبحانه؛ ليس كاستواء المخلوقين، ولا نُدرك كيفيته، واستواؤه عليه ليس عن حاجة؛ فإنّ كل شيء مُحتاج إلى الله، والله غني عما سواه؛ بل العرش، وما دونه، لا قيام له إلا بالله سبحانه وبحمده؛ كما قال: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: ٤١].

قوله: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: قال ابن الجوزي، رحمه الله: (في قوله تعالى: "تَرَوْنَها" قولان:

- أحدهما: أن هاء الكناية ترجع إلى السّماوات؛ فالمعنى: ترونها بغير عَمَد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والجمهور. وقال ابن الأنباري: «ترونها» خبر مستأنف، والمعنى: رفع السّماوات بلا دعامة تمسكها، ثم قال: «ترونها» أي: ما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه.

- والثاني: أنها ترجع إلى العَمَد؛ فالمعنى: إنها بعمد لا ترونها، رواه عطاء والضحاك عن ابن عباس، وقال: لها عَمَد على قاف، ولكنكم لا ترون العَمَد، وإلى هذا القول ذهب مجاهد، وعكرمة، والأول أصح)[٢].

والأقرب، والله أعلم، أن ثمّ عمدٌ، لكنها غير مرئية؛ لأنه لو أراد نفي العمد مُطلقًا لاكتفى بالقول: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ}، دون التقييد بـــ {تَرَوْنَهَا}، فثم عمد -والله أعلم-لكنها ليست من جنس العمد التي نعهدها.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٢٤١٢).

[٢] زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٤٨٠).

قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}: قدّم ذكر اسمه الشريف، سبحانه، على ذكر الاستواء؛ مراعاة للفواصل.

وبقية الشواهد الستة بلفظ مطرد: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وهذا الاطراد يدل على أنه أراد حقًا وصدقًا إثبات هذه الصفة الفعلية.

ولكن الزائغين، المتبعين للمتشابه، زعموا أن المراد باستوائه على العرش استيلاؤه عليه! وليس استواءً حقيقيًا؛ فإذا قِيل لهم: ما الصارف لذلك عن ظاهره؟ قالوا: لأن الاستواء من أفعال المخلوقين؛ والله مُنزه عن مُشابهة المخلوقين.

والرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: إن الله أضاف الاستواء إلى نفسه فاختص به؛ وإنما وقع الاشتراك في اللفظ، وفي أصل المعنى، في الأذهان، أما حقيقته وكيفيته في الأعيان فلا اشتراك فيه؛ كما قال الإمام مالك –رحمه الله– ، لما دخل عليه داخل، وقال: (يا أبا عبد الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ فقال الإمام مالك –رحمه الله–: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وفي لفظ: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُراك إلا صاحب بدعة؛ ثم أمر به فأُخرج من المسجد)[١].

فأثبت الإمام مالك –رحمه الله–معنى الاستواء، وأنه معروف في لغة العرب، لا يخفى على عربي، وأما الكيف؛ وهو ما يختص به سبحانه، وينفرد به عن سائر استواءات المخلوقين، فمجهول، أو غير معقول، أي: لا تتمكن عُقولنا من دَرَكِه. والإيمان بالاستواء واجب، لأن الله أخبر به، ورسوله صلى الله عليه وسلم. والسؤال عن كيفيته بدعة، لأن الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، ما كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن كيفيات ما أخبر به عن ربه، بل يؤمنون بها، مدركين لمعناها مفوضين لكيفياتها؛ فهذا جواب سديد، من إمامٍ رشيد، يُجاب به كل من سأل عن كيفيات الصفات.

---

[١] رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: (٤٤١/٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات: (٣٠٥/٢)، وصححه الذهبي، وشيخ الإسلام، والحافظ ابن حجر؛ انظر: مختصر العلو (ص: ١٤١)، مجموع الفتاوى: (٣٦٥/٥)، فتح الباري: (٥٠١/١٣)، بألفاظ متقاربة، ومعنى متحد.

الوجه الثاني: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء مخالف للغة العرب؛ فقد سئل ابن الأعرابي، والخليل بن أحمد، وغيرهما من أئمة اللغة: هل يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فأبوا، وقالوا: هذا شيء لا تعرفه العرب، وحسبك بهم؛ فإنهم أئمة اللغة وأهل اللسان؛ والقرآن نزل بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ (١).

الوجه الثالث: أن هذه الدعوى مُخالفة لما تواتر في كتاب الله، في سبعة مواضع تُعبر بلفظ الاستواء؛ فلو كان مُراد الله تعالى من الاستواء الاستيلاء، لقال، ولو في موضع واحد: استولى، ولكن هذا اللفظ اطرد في جميع المواضع السبعة.

الوجه الرابع: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يلزم منه لوازم فاسدة، منها:

- ألا يكون الله تعالى مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض!
- ألا يكون بين العرش والأرض السفلى فرق؛ لأن الله تعالى مستولٍ على الجميع.
- أن يقول قائل: استوى على البيوت، واستوى على الشجر، واستوى على الحجر، وأشياء لا يقوى الإنسان على ذكرها.

فهذا لازم قولهم، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم؛ فتفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير باطل، وقولٌ على الله بغير علم، ولا مُلجئ إليه؛ فإنه لا يجوز صرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره إلا بوجود دليل يُوجب نقل المعنى من حقيقته إلى مجازه، على فرض القول بالمجاز؛ ولا دليل.

والمتكلمون يزعمون أن الدليل الموجب لصرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره أنه يستلزم التشبيه؛ فنقول: هذا ليس بلازم؛ فلله تعالى استواء يليق به، وللمخلوق استواء يليق به، كما أن له حياةً، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادةً، وقدرةً، وكلامًا يليق به، وللمخلوق منها ما يليق به؛ فلا فرق بين ما أثبتم، وما نفيتم.

---

(١) راجع (العلو) للذهبي: (ص ١١٨، ١٣٣)، و (مختصره) للألباني: (ص ١٧١، ١٩٤-١٩٥)، و (اجتماع الجيوش الإسلامية) (ص ٢٦٤-٢٦٧)، وراجع (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) للالكائي (٣/٣٩٧، ٤٠٠)، وانظر أيضاً: (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (٧/٣٢٦)، و (معاني القرآن) للفراء (١/٢٥).